بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى مستهل القرن السابع الميلادى اندفع أبناء قلب الجزيرة العربية إلى ثغورها وطفقت كتائبهم تتدفق إلى أرجاء العالم فاتحة ومبشرة. ونزل أفلاذ أكبادها سهول الرافدين منقذين ومحررين، يحملون دينا وحضارة أما الحضارة فهى ذخيرة هؤلاء الفاتحين فى طبائعهم وعرفهم وتقاليدهم وثقافتهم وتاريخ وقائعهم، يعبر عنها سلوكهم فى الحياة ويحملها أدبهم فى شعره ونثره. وأما الدين فقد تسنم مكارم هذه الحضارة ونظم تكوين الأسرة، وحدد الحقوق بين أفراد هذه الأسرة والعشيرة وبين الفرد وأخيه. وبين الإنسان وخالقه وتوج كل ذلك بالاعتراف بالحريات المطلقة الطبيعية لبنى الإنسان فى الإخاء والمساواة والعدل الاجتماعى وحرية الرأى وحرية الملك وغير ذلك على طراز منقطع النظير.

هذه عبارة واضحة موجزة فى الحضارة التى حملتها كتائب القلب إلى الهلال الخصيب منها. وقد وقف قائد هذه الكتائب على سهول الرافدين مبهوراً بهذه المدنية القديمة التى غلبها على أمرها ثم صلى ركعتين شكراً لله وتلا آية القرآن الكريم: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين». ولكن هذا القائد ما كان يعرف تبعة هذا الإرث وما كان يعلم أن قراع السيوف سوف يعقبه صرير الأقلام واشتجار الآراء والأفكار بين حضارته الجديدة وبين أخرى هى ذخيرة عقول الأمم المتعاقبة على هذه السهول، وأن المغلوب وإن كان يحاول تقليد الغالب فهو يحاول التخلص منه

والرجوع إلى سابق عهده وأن كثيراً من النفوس التى ألفت شيئاً وطبعت عليه يصعب عليها أن تتحلل منه وتنزع إلى جديد آخر غيره . ولذلك ما لبث الأمر برهة من الزمن حتى بدأت من المغلوبين طلائع الثأر . لكن الغالب كان فى فتاء السن وعنفوان القوة .

كانت نتيجة هذا الغلب ظهور جماعة جديدة دخل فريق منها فى هذا الدين الجديد عن عقيدة وإيمان . واعتنقه فريق آخر ظاهرا وظل يبطن خلاف ما يظهر ويخلص لعقيدته الأولى ويتمسك بثقافته وحضارته . ومن هنا بدأت حركة عنيفة اتخذت أشكالا مختلفة ، ثم استقرت على تعبئة منظمة ، فقد رأى المغلوب أن الكيد لهذا الطارىء الجديد على الحيلة أنجع وأنه لا يمكنه القضاء على هذا المبدأ إلا بمعرفته ، فانكبوا على دراسة اللغة ودراسة ما ورد من الآثار والتعرف على عادات القوم وطبائعهم ، ونعم الفريقان بهذه المبادىء وباللغة وآدابها والفضائل الأصيلة واتخذ الفريق الحانق منها سلاحا ليقوض به أركان هذا الغلب ويرجع بالناس إلى سالف العهد .

وانقضت السنون والاختلاط يشتد بين الغالب والمغلوب حتى تم لكثير من أبناء السنى فى الحواضر والبوادى إتقان اللغة والتفقه فى الحديث ودراسة القرآن والتطبع بطبائع الحاضرة والبادية . وتقدموا فى مناصب الدولة والجيش ولقنوا عن آبائهم مآثر أسلافهم ، فأقبلوا على ترجمة ما أثر عن مانى ومزدك وما كتبه التاريخ فى سير عظمائهم وملوكهم ، وما طوى فى بطون الكتب من أدبهم وثقافتهم ووضع كل ذلك أمام ما جاءت به كتائب الجزيرة وجها لوجه وصار خميرة قوية لإثارة الشك فى العقيدة ، ومنبعا لظهور البدع وانتشار المراء والجدل الفلسفى الذى نشأت عنه الفرق المتعددة ، وفى غمرة هذه الآراء نبطت جماعة غضبى أو هازلة عابثة فوضعت ما شاء لها الوضع فى الشعر والتاريخ

والأدب ، وألفت كتب المثالب والطعن فكان من جراء ذلك كله ما كان من تشويه حقائق التاريخ وحقائق العلم وتوجيه الرواية والأدب وجهة خاصة هى إلى الهدم أقرب منها إلى أى بناء . وأخذ الناس المروى من التاريخ دون تحقيق وتمحيص وأقبلوا على الشعر يروونه ويلسجون على منواله واتخذوا مما أثر عن هؤلاء فى الفلسفة والاجتماع موضوعات للدرس يتدارسونها ويعارضون بها العقيدة والشريعة . وقد تبنت أسرة البرامكة تشجيع حركة النشر والتأليف وتشجيع الأدباء والمترجمين ، واستولت على شئون الدولة واحتجنت المناصب والأموال وطفقت تتصرف فى أمور المملكة تصرف المالك فى ملكه فأغضب ذلك كله الرشيد فعجل بأمرهم قبل أن يمشوا إليه ، ولكن ذلك لم يفت من عضد الموالى واستمروا على حركتهم حتى تم لهم الظفر اجتماعيا وأدبيا ونبتت رءوس البدع فتهلهل حال الدولة ومالت إلى الزوال وتوج هذا الظفر بأسرة آل بويه الذين أسلموا الدولة إلى الخراب .

هكذا واجهت حضارة الجزيرة هذا الصراع العنيف الذى تولته المانوية والمزدكية ، لكنها صمدت أمامهما بما لها من الجدة والقوة ، واستطاعت أن تهضم ما أخذته من حضارتى اليونان والرومان وما اقتبسته من علوم الأمم الأخرى وأن تفرغها بلغتها الواضحة فتظهر جمالها وتبرزها للناس فيما أبدعته من هندسة وفن ، وابتكرته من علم فى الرياضات والكيمياء والصناعة والتقنين والتشريع ، حتى أصبح تشريعها أصلا من أصول شرائع الأمم المتحضرة ، فكانت حلقات الدرس العلنية تجابه تعاليم الباطنية ودور العلم تتوارى منها كهوف المانوية والمزدكية ونور الإيمان يطفىء لهيب المجوسية الذى كان يؤججه ابن المقفع وبشار بن برد والبرامكة وأبو نواس وأبو العتاهية وأضرابهم ، وكانت أخبار الأصمعى وروايات المفضل الضبى وابن دريد ، تخفف من انتحال خلف الأحمر ،

ووضع حماد ، وبهتان أبي عبيدة على حقائق التاريخ . ومع ذلك كله فإن طبيعة المجتمع طبيعة الكائن الحي يدركها الوهن والانحطاط فإذا اختل جهاز الكائن الحي وهن العظم وتصلب الجذع وارتخت الأطراف في أداء أعمالها واصطلحت عليه العلل ، كذلك هي حضارات الأمم إذا ضعفت فيها عناصر القوة وتوارت الحقائق ، برزت دواعي البدع وطلعت ألسنة المجربزين لتحل الكذب محل الصدق والمنحول مكان الأصيل وتشرع تستغل السذج وقطعان البشر التي تسير بالأوهام وتميل إلى التحلل من الصدق والنظام وتستجيب لكل ما يوقظ فيها غرائز النهم التي تخضم ثمار الفضيلة ، وتعود الأنفس تتأرجح في أراجيح الشك فيلذ للفرد أن يتنقل من عقيدة إلى عقيدة ومن مبدأ إلى آخر ويسخر بالتقاليد ولا يبالي بالنقص ، وتسود أحاديث خرافة على حقائق الواقع وتطرد نوابت البدع أصائل العقائد فيضطرب الرأي العام ويصبح ذلك الرأي هو المسيطر على تكوين الجهل بعد أن كان المفروض أن الدماغ المفكر هو الذي يسيطر على إنشاء الجهل وإبداع عناصر الحضارة . فإذا وصلت أمة من الأمم إلى مثل هذا الطور أو فسح أبناء الجهل مجالا في أن تكون أمة من الأمم في مثل هذا الطور صارت حضارتها تتأرجح بين اصبعي القدر ، فإذا هيأت لها الإرادة العليا مصلحاً مرشداً عزت عليه سبل الإصلاح وتكأكأ عليه دعاة الضلال ، فيشرع يصارع هؤلاء الضالين ويصارعونه حتى يأخذ الله بيده ويعينه أتباعه ونصراؤه .

إن الخرافات لا تقف في وجه الحقائق ، والأباطيل لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق ، ولن يستطيع تبديد شوائب الخرافات وأخلاط البدع إلا العلماء المحققون الذين يصبرون على متابعة البحث ، حتى تصفو حقائق العلم والتاريخ وتخلص العقائد كما يخلص الذهب الإبريز من خبث الحديد ، عند ذلك تصبح الأمة تنظر إلى أمجادها وعقائدها بنظر العقل

لا بعيون الهوى . والتاريخ والأدب يمدان أيديهما إلى المحققين الباحثين مستنجدين لتخليصهما من هذه الشوائب التى لعبت بهما لعب النكباء بالعود ، وتركت هذا الشرق يئن من جراحه المثخنة . وقد كنت وأنا فى دور الحضانة الدراسية أستعرض حوادث هذا الشرق وأتقصى آثاره وأتبين هفواته ونهضاته وكبواته ، فإذا أكثر ذلك يعود إلى هذه الحركة « حركة الموالى » التى اتخذتها موضوع دراستى وعالجتها معالجة المدقق ، وضربت لذلك الأمثال لأدلل على ما أقول ، وجعلت النص الذى أورده من أمهات الكتب هو الذى ينطق بالحقائق ، فإن وفقت بعض التوفيق إلى إبراز هذه الصورة الواضحة فالخير أردت ، وإن شاركنى القارىء فى الرأى فذلك ما أصبو إليه ، وإن خالفنى فى رأى فله رأيه وحسبى أننى أظهرت رغبة كانت تجول فى خاطرى ، فإن كنت أخطأت فلى أجر واحد ، وإن أصبت فلى أجران . على أننى لا أكتم القارىء بأن هذا العمل لقى تشجيعاً من قبل علماء الاستشراق ، فقد وردتنى رسائلهم يثنون بها على ما وصلت إليه فى إيضاح كثير مما كان غامضاً . ولا يفوتنى التنويه بفضل الأستاذ « باول كالا » أستاذ الاستشراق فى جامعة « بن » على الراين من مقاطعات ألمانيا ، فقد بدأت العمل معه بعد أن وافقت وزارة المعارف على اسم الموضوع وقد كان اسمه أولا « الصراع بين الموالى والعرب » ثم حدث أن ترك هذا الأستاذ بلاده لاختلاف وجهة نظره مع حكومته حينذاك ، فتبنى العمل بعده الأستاذ « هفننج » ولكن اندلاع لهيب الحرب حال دون الاستمرار على العمل معه ، فسافرت إلى سويسرة حيث قبل الأستاذ « رودلف جودى » أستاذ المشرقيات فى جامعة « بازل » الموضوع كما قدمته بادىء ذى بدء ، ثم بدا له أن العنوان ضخم ، يحتاج إلى سفر كبير ، وبحث طويل ، تحول ظروف هذه الحرب الشعواء دون إعطاء المجال لتحقيقه . وطلب اختصار العنوان وجعله

« بحث فى حركة الموالى فى الخلافة الشرقية » على أن نلم بالموضوع من أطرافه ليكون صورة ناطقة لإيضاح هذه الحركة ومراميها وله الفضل والشكر فى كثير مما جاء فقد كان عالماً محققاً ولم يرض أن يقرن اسمه مع اسمى فى هذه الرسالة حتى قرأ نصوصها نصاً نصاً ، ورجع إلى مضانها وأرشدنى إلى كثير من النصوص التى تؤيد الأقوال ، فكان بمثابة المعين والمؤيد ، وكان يقسو أحياناً فيشتد الجدل بينى وبينه حتى نرجع إلى أمهات الكتب والمصادر لتكون الحكم الفصل بيننا . وهكذا تم وضع الرسالة التى تقدمت بها للامتحان فى منتصف عام ١٩٤١ ، ولم يتم طبعها إلا فى عام ١٩٤٢ باللغة الألمانية بعد مراجعة ومعاودة بينى وبين الأستاذ . فجاءت على هذا الوضع الذى يراه القارىء بين يديه ولن أدعى أننى وفيت الموضوع حقه ، فهو موضوع واسع شائك ولكنى لممت أطرافه ووضحت سبله وأشرت إلى مواطن القوة والضعف فيه ، وجعلت لمن يريد الاستزادة منه بعدى سبيلا ممهداً واضح المعالم ، والله الموفق ، وله العصمة والكمال وحده .